قراءات نقدية

وصف المطر لامرئ القيس بن حجر.. التشكيل والتأويل

د / أحمد صلاح البنا

١. دِيمَةٌ هَطْلاءُ فِيها وَطَفٌ
طَبَقُ الأَرْضِ تَحَرَّى وَتَدُرْ[١]

٢. تُخْرِجُ الوَدَّ إذا ما أَشْجَذَتْ
وَتُوارِيهِ إذا ما تَشْتَكِرْ[٢]

٣. وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفًا ماهِرًا
ثانِيًا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِرْ[٣]

٤. وَتَرى الشَّجْراءَ فِي رَيِّقِهِ
كَرُؤُوسٍ قُطِّعَتْ فِيهاالخُمُرْ[٤]

فِيهاالخُمُ رْ[٤]

٥. سَاعَةً ثُمَّ انْتَحاها وَابِلٌ
سَاقِطُ الأَكْنافِ واهٍ مُنْهَمِرْ[٥]

٦.
رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبا ثُمَّ انْتَحَى
فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْفَجِرْ[٦]

٧.
ثَجَّ حَتَّى ضاقَ عَنْ آذِيِّهِ
عَرْضُ خَيْمٍ فَجُفافٍ فَيُسُرْ[٧]

٨.
قَدْ غَدا يَحْمِلُني فِي أَنْفِهِ
لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرْ[١]

١- الديمة: المطر الدائم. الهطلاء: الكثيرة الهطل. الوطف: الدنو من الأرض. طبق الأرض: تطبق الأرض وتعمها كلها. تحرى: تتعمد المكان وتثبت فيه. وتدر: يكثر ماؤها وترسل درتها.

٢- الود: وتد الخيمة، أو اسم جبل. أشجذت: أقلعت وسكنت. تشتكر: تحتفل ويكثر مطرها.

٣- البرثن: بمنزلة الإصبع من الإنسان. ما ينعفر: لا يصيبه العفر وهو التراب.

٤- الشجراء: اسم لجمع الشجر الكثير، أو الأرض ذات الشجر الكثير. ريقه: أول المطر. الخمر: العمائم.

٥- انتحاها: اعتمدها. الوابل: المطر الشديد. الأكناف: النواحي. واه: متخرق متشقق بالماء. منهمر: منسكب سريع السيل.

٦- راح: عاد بالمطر في آخر النهار. تمريه: تحركه وتديره. الشؤبوب: دفعة المطر وشدته. منفجر: متفتح بالماء سائل.

٧- ثج: صب. آذيه: كثرة موجه.خيم وجفاف ويسر: مواضع.

حازت هذه الأبيات إعجاب القدماء شعراء ورواة، حيث حدث الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سأل ذا الرمة ـ الشاعر الأموي ـ فقال: أي الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر؟ فقال: قول امرئ القيس، ثم أنشده هذه القصيدة.

ولم يقدم لنا ذو الرمة ولا من روى عنه القصيدة تعليلا لهذا الحكم ولا تحليلا مفصلا لتلك القصيدة؛ مما يغرينا باستبطانها رجاء أن نقدم تحليلا وافيا لها يصلح لأن يكون تعليلا لحكم القدماء.

ويلاحظ ـ بادئ ذي بدء ـ على هذه القصيدة أنها تنقسم إلى مشهدين أساسيين إضافة إلى مشهد النهاية، يستغرق المشهد الأول أربعة أبيات، في حين يشغل الثاني ثلاثة أبيات، أما مشهد النهاية فلا يحتل سوى بيت واحد.

ويصور المشهدان الأساسيان مرحلتين متتاليتين من مراحل المطر التي يعمد الشاعر في كل منهما إلى تجميع لقطات في حركة رأسية تبتدئ بالسماء وتنتقل إلى الأرض لتصف أثر السماء فيها.

فإذا نظرنا إلى المشهد الأول، وجدناه يعرض له بقوله :

دِيمَةٌ هَطْلاءُ فِيها وَطَفٌ
طَبَقُ الأَرْضِ تَحَرَّى وَتَدُرّْ

تُخْرِجُ الوَدَّ إذا ما أَشْجَذَتْ
وَتُوارِيهِ إذا ما تَشْتَكِرْ

وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفًا ماهِرًا
ثانِيًا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِرْ

وَتَرى الشَّجْراءَ في رَيِّقِهِ
كَرُؤُوسٍ قُطِّعَتْ فِيها الخُمُرْ

فالشاعر يبدأ قصيدته بوصف السحاب وما ينتجه من مطر، فيصف هذا المطر بما يحدد زمانه وكمه ومسافته من الأرض ومساحته وحركته. والغالب على هذا الوصف توظيف الأسماء (ديمة ، هطلاء ، فيها وطف ، طبق الأرض)؛ وذلك

---

١ يحملني في أنفه: أي في أول هذه المَطْرة. لاحق الإطلين: فرس ضامر الكشحين. محبوك ممر: مدمج الخلق شديد.

للدلالة على ثبوت الصورة واستغراقها وقتا طويلا دون أن يصيبها تغير يذكر. أما الفعلان (تحرى، تدر) فالواقع أن أولهما جاء ليعطي حيوية لهذه الصورة الثابتة من خلال التشخيص، حيث جعل الشاعر من هذه السحابة الضخمة إنسانا تحرى هذا المكان حتى وقع عليه، فاختصه بذلك المطر دون غيره، أما الفعل الآخر فقد جاء تكرارا لصفة أراد الشاعر أن يزيدها أهمية لأنها مناط الإعجاب الأول، وهي صفة الكثرة التي عبر عنها من قبل بالصفة المشبهة (هطلاء)، وأوحى بها من خلال تكثيف الأصوات المفخمة، خاصة الطاء والقاف والضاد.

ثم تأتي الأبيات الثلاثة التالية ليبين الشاعر خلالها أثر هذا المطر على الأرض، فيعرض لثلاث لقطات مختلفة، أولها لجماد (الود) وثانيها لحيوان (الضب) وثالثها لنبات (الشجراء).

وأكثر ما يلفت النظر في اللقطة الأولى هو الأفعال الموظفة فيه، فإسناد الفعلين (تخرج) و(تواري) إلى المطر ـ مع ملاحظة تناقضهما ـ يوحي بمدى ما كفلته كثرة المطر له من تحكم في الأوتاد مهما علت، ومجيء الفعل (أشجذت) بصيغة الماضي يدل على قصر وقت حدوث الفعل وانتهائه وذلك إذا ما قارناه بالفعل المضارع (تشتكر) الذي يدل على الغلبة والتجدد والاستمرار، وهو ما يتوافق مع البيت الأول.

أما تركيب هذه اللقطة، فقد بنيت على جملتين شرطيتين متناظرتين عمدتهما أداة الشرط (إذا)، فكلتاهما تقدم فيها جواب الشرط على فعل الشرط؛ مما يتوافق مع بناء الصورة، فاهتمام الشاعر منذ هذا البيت متجه إلى أثر المطر المتمثل في مراوحته بين (تخرج الود ... وتواريه) لا إلى وصف كثرة المطر التي سبق أن أشار إليها في البيت السابق.

فإذا انتقلنا إلى لقطتي (الضب) و(الشجراء)، ألفينا الشاعر يدخل فيهما العنصر البشري المتمثل في المتلقي من خلال إسناد فعل الرؤية له (وترى)، وهو الفعل الذي يجعل المتلقي شريكا للشاعر في رؤيته، فيقر له بما يذكره ويصوره. كما أن تكرار هذا الفعل في صدر البيتين اللذين يصوران هاتين اللقطتين يقيم بينهما رباطا لفظيا، يسهم في ترتيب لقطات المشهد الواحد.

وإذا كان الشاعر جعل من لقطة الوتد لقطة حيوية متحركة من خلال توظيف الأفعال المتضادة (تخرج ... وتواريه) و (أشجذت ... تشتكر)، فإن حركة الضب نفسه كفته مؤنة ذلك، فما كان على الشاعر إلا أن يجسد لنا تلك الصورة.

أما مشهد (الشجراء)، فعلى الرغم من ذلك التشخيص الذي لجأ إليه الشاعر في الشطرة الثانية، فإن سمة الحيوية قد غابت عنه؛ وذلك لأن الشاعر عمد إلى إتمام الصورة ماديا دون اهتمام بالأثر النفسي الذي تثيره صورة الرؤوس المقطعة وما يفوح عنها من رائحة الموت والدم.

وبذلك ينتهي المشهد الأول من القصيدة أو المرحلة الأولى من مرحلتي المطر المتتاليتين اللتين يصورهما الشاعر.

ويبدأ المشهد الثاني الذي يقول فيه الشاعر:

سَاعَةً ثُمَّ انْتَحاها وَابِلٌ
سَاقِطُ الأَكْنافِ واهٍ مُنْهَمِرْ

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبا ثُمَّ انْتَحَى
فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْفَجِرْ

ثَجَّ حَتَّى ضاقَ عَنْ آذِيِّهِ
عَرْضُ خَيْمٍ فَجُفافٍ فَيُسُرْ

وبالموازنة بين وصف السحاب والمطر في السماء في كلا المشهدين، يتبين من ناحية كمية أن الوصف في المرحلة الثانية استغرق ضعف وصف

المرحلة الأولى (بيتان لبيت واحد)، وربما كان ذلك راجعا إلى متطلبات المشهد نفسه، فقد اتسم المشهد الأول بالثبات الذي دل عليه كثرة استخدام الاسم في مقابل الفعل، وكذلك تعبيره عن زمانه بقوله (ساعة)، أما المشهد الثاني فقد اتسم بالتغير والتحول مع طول الفترة الزمنية، فقد بدأت هذه المرحلة بـ(وابل)، استمر إلى آخر النهار . والدليل استخدام الفعل (راح) . حتى هبت (الصبا) فأخذت فترة في إعادة تشكيله وتجميعه . ودليل ذلك حرف العطف (ثم) . حتى سقط المطر في دفعات قوية شديدة. كما يتبين من جهة كيفية أن سمة هذه المرحلة الغالبة هي قوة المطر وشدته، وذلك بيِّن في (وابل ، واه منهمر ، شؤبوب ، منفجر)، وذلك بخلاف سابقتها التي اتسمت بالكثرة والغزارة.

وربما كانت سمة القوة والشدة هي الداعية إلى تغليب توظيف الفعل الماضي الموحي بفورية وقوع الحدث وانتهائه، حيث ورد في سياق وصف مطر هذه المرحلة خمس مرات في مقابل مرة واحدة للفعل المضارع، وذلك في مقابل غلبة الفعل المضارع على المرحلة الأولى بالنسبة نفسها مقارنة بالفعل الماضي لتجسيد الصورة أمام عيني المتلقي.

وإذا كان الشاعر استحضر المتلقي بطريقة مباشرة في المرحلة الأولى ليشاركه الرؤية والنظر فيما يتعلق بأثر المطر على الأرض، فإنه في هذه المرحلة يستدعي حاسة السمع عنده بطريقة غير مباشرة ليتمثل صورة السحاب والمطر وهما في السماء، فهو لا يطلب منه الاستماع مباشرة، وإنما يحسن توظيف الأصوات للقيام بهذه المهمة، فالبيتان الأولان هما أغنى أبيات القصيدة بحروف المد، حيث يحوى كل منهما سبعة أصوات مد بينها من التباعد ما يتيح وقتا للمتلقي ليتمثل الصورة، أما مقاطع كلمة (شؤ / بو / بُ) في الشطرة الثانية من البيت الثاني،

وكثرة الأصوات الانفجارية والمركبة المتحركة في هذا الشطر عامة (**فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْفَجِرْ**)، فإنها توحي بقوة دفعات هذا المطر المتتالية .

وفي مقابل اتساع الرقعة المخصصة لوصف السحاب في هذه المرحلة، تتقلص المساحة الخاصة ببيان أثره على الأرض، فلا تتجاوز بيتا واحدا يصور فيه الشاعر ما بلغته أمطار المرحلتين جميعا من كثرة وقوة، وهو ما يوحي به الفعل (ثج) دلاليا وصوتيا، وكذلك جعله من هذه الأماكن المترعة بالماء بحارا ذات أمواج (آذيه)، إضافة إلى تقريره سرعة امتلائها بالماء، وذلك من خلال توظيف (الفاء) الدالة على السرعة للعطف بينها (**عَرْضُ خَيْمٍ فَجُفافٍ فَيُسُرْ**).

أما المشهد الختامي للقصيدة فيتمثل في قول الشاعر:

قَدْ غَدا يَحْمِلُني في أَنْفِهِ

لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرْ

وهو مشهد يحمل ظهورا مفاجئا للراوي ـ الشاعر ـ الذي يحرص على أن يثبت صدق ما روى، وذلك من خلال توظيفه الفعل (غدا) الدال على خروجه لمعايشة هذه الصورة منذ الصباح الباكر، وبمقابلة هذا الفعل بالفعل (راح) في البيت قبل السابق، يتضح أن الشاعر قام في البيت الأخير بارتداد (فلاش باك) ليغلق الدائرة الزمانية، ويؤكد إحاطته بالحدث من مبدئه إلى منتهاه.

ولا يظهر الشاعر مجردا في هذا المشهد، وإنما يبرز لنا فارسا ممتطيا جواده الذي وصفه بصفات ثلاث دالة على الثبات والقوة (**لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرْ**)؛ وذلك إمعانا في تأكيد معايشته الحدث، فلربما لولا ما تمتع به هذا الفرس من قوة ما استطاع الشاعر الحركة والانتقال لإخراج هذه الصورة المتكاملة.

❖ ❖ ❖